

مدخل إلى الفلسفة المعاصرة (المحاضرة الأولى)

أستاذ المقياس: بوراس يوسف.

مقدمة: عادة ما يطلق إسم الفلسفة المعاصرة على تلك الفلسفة التي ظهرت في المئة عام الأخيرة أو أكثر من ذلك بقليل، وإن كان بعضها تمتد جذوره إلى أكثر من ذلك. فنعد منها الفلسفة البرغماتية، والظواهرية، والوجودية، والتحليلية باتجاهاتها، والنبوية، والتفكيكية، والتأويلية والواقعية الجديدة...

ويستدعي الحديث عن الفلسفة الغربية التعرض للخلفية التي أدت إلى ظهورها، وبالنظر إلى الارتباط الموجود بين مختلف العصور في تاريخ الفلسفة، حيث يبني اللاحق على السابق، فيمكن تتبع هذه الخلفية في هذا التاريخ ذاته، لكن قد لا يتسع المقام إلى إستعراض جملة تاريخ الفلسفة مما يستدعي التعرض للحلقة الأخيرة منه والسابقة عن هذه الفلسفة، والمتمثلة في الفلسفة الحديثة، نظرا للترابط التسلسلي بينهما، ولتعرض الطالب للفلسفات الأخرى اليونانية منها والمسيحية والإسلامية...

وإذا كانت الفلسفة اليونانية تحمل في خلفيتها ومضمونها طابعا أخلاقيا، والفلسفة الوسيطية (مسيحية ويهودية وإسلامية) تحمل خلفية ومضمونا دينيا، فإن الفلسفة الحديثة تأثرت بالنقلة النوعية التي حققها عصرها، والمتمثلة في العلم، يقول الأستاذ مهران: "إن موضوع الاهتمام في العصور الحديثة كان له طابع مختلف. إذ تميزت هذه العصور بعامل جديد، لم يغير في الجوانب الاقتصادية للمجتمعات فحسب، بل في جميع جوانب الحياة الأخرى سواء الاجتماعية أو السياسية أو الأخلاقية، وهذا العامل الجديد هو العلم"¹

ويرى مؤرخي الفلسفة أن العصر الحديث يختلف عن سابقه الوسيط فلسفيا من جهة تقلص سيطرة الكنيسة، وازدياد سلطة العلم. وقد كانت بداية الصراع بين العلم والكنيسة إبتداء من ظهور نظرية كبرنيكوس (1473 — 1543)، والتي شهدت تأثيرها الكبير مع الإضافات التي قدمها كل من كيبلر وجاليليو في القرن السابع عشر، ولقد كانت نتيجة الصراع بينهما إندحار الكنيسة لصالح العلم، ليس على المستوى المعرفي فحسب ولكن على المستوى الاجتماعي أيضا " فقد ترك العلم آثاره الواضحة في الحياة العامة للإنسان وغير الكثير من النظم الاجتماعية... والسياسية والاقتصادية والفكرية"².

أولا: نتائج العلم الجديد على الفلسفة الحديثة: ولقد كان لانتشار سطوة العلم وسيطرته على شتى مجالات الحياة جملة من الآثار، أهمها

أ: الانتقال من النظر التألمي في العلم والذي يهدف إلى فهم العالم، إلى النظر العملي والمتمثل في تغيير العالم، وهو منظور براغماتي للمعرفة، لم يسبق التعامل وفقه.

ب: أدى إنتصار العلم على الكنيسة إلى إنتشار مفهوم التحرر الذي أدى بدوره إلى غلبة الطابع الفردي، وهو ما يظهر في أعمال الفلاسفة التي تغلب فيها الطابع الذاتي الخالص، وهو مانجده عند ديكارت الذي سلم بالوضوح الذي هو ذاتي، أو بذرات لايبنتز المنغلقة على ذاتها...

ت: تغير النظر إلى طبيعة الحركة بالنسبة للأجسام الجامدة خاصة، حيث ظلت فكرة وجود أرواح وراء تحريك الأجسام هي المسيطرة، ومن ذلك عدم حركة الأجسام الجامدة من ذاتها لخلوها من روح، إلا إذا تدخلت قوة خارجية. وهو الأمر الذي نفاه نيوتن، حيث قرر القانون الأول للحركة: (أن الجسم المتحرك يظل متحركا ما لم يعترض طريقه عائق خارجي) وقد كان لهذه النظرية تأثيرها الكبير على كثير من النظريات الفلسفية اللاحقة³.

1 محمد مهران، محمد مدين، مقدمة في الفلسفة المعاصرة، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 2004، ص19.

2 المرجع نفسه، ص20.

3 المرجع نفسه، ص22.

ث: مع الاكتشافات الحديثة لموقع الأرض مع نيوتن وعلم الفلك لديه ومكانتها في الكون باعتبارها جزء ضئيل منه تابع لغيره، غير متبوع، ولا مركز للكون، تضاءلت قيمة الإنسان التي تحولت من سيد هذا الكون إلى كائن يمثل جزء بسيطاً في هذا البناء الكبير.

ج: ولعل المتغير الأبرز هو بروز المنهج الإستقرائي إلى جانب المنهج الإستنباطي، هذا المنهج الرياضي في طبيعته ظل مسيطراً في مجال الفلسفة لعهود عدة. لكن مع التطورات التي لحقت الرياضيات في العصور المتأخرة وتطور منهجها أدى إلى وجود نوع من التعاضد بين المنهجين ظهر في إستخدام لغة الرياضيات والصيغ الرياضية خصوصاً في التعبير على القوانين. وقد كان لهذا الأمرين نتيجتين على مستوى توجه الفلاسفة، توجه يذهب إلى إستعمال الرياضيات في الفلسفة إنطلاقاً من قدرتها على التعبير الدقيق على قضايا العلم، وطائفة توجهت رأساً إلى المنهج التجريبي باعتباره الأدوات الوحيدة الكفيلة بالتحقق من الموضوعات. وهو ما أفرز لنا مرستين العقلية والتجريبية.

إن ما نخلص إليه في الأخير أن العصر هو عصر العقل بامتياز، أرخت له الاكتشافات العلمية الباهرة، وذلك بفضل المنهج العلمي الجديد، إلا أن الغرور الكبير الذي أصاب إنسان هذا العصر أدى إلى ردة فعل عنيفة مثلتها خصوصاً النزعة الرومانسية.

ثانياً: الكانطية: نتيجة الصراع الكبير بين التيارين التجريبي والعقلي والذي أفرز نوعاً من الريبية والشك، وذلك نتيجة لسيطرة الفكر الميكانيكي، جاء كانط لينقذ العقل الأوروبي الحديث، دون أن يعني ذلك التبراً من المذهب الميكانيكي.

حيث يرى كانت أن العالم التجريبي هو نتاج تركيب قامت به الذات الترانسندنتالية بين الإحساسات الغير منظمة والتي مصدرها العالم الخارجي، وأدوات مجهز بها العقل هي عبارة عن مقولات قبلية، حيث يطبق العقل قوانين الطبيعة والرياضيات والمنطق على العالم الخارجي لفهمه دون أن تطبق عليه هو. ولكن في هذه الحالة تصبح معرفة الشيء في ذاته غير ممكنة — والمقصود هنا المعرفة التي تتجاوز المحسوسات — فالمعرفة تنحصر في الحدوس الحسية. وهو ما يعني بالتالي إنكار الميتافيزيقا.

وكخلاصة للأمر يمكن القول بوجود ميدانين للحقيقة في منظور كانت: "العالم التجريبي أو الظاهري (الفينومان) الذي يخضع كله تمام الخضوع لقوانين الميكانيكا، وعالم الوجود في ذاته، أو النومان، الذي لا قدرة لنا على معرفته معرفة عقلية"¹.

وقد اعتبر هذا الطرح قفزة كبيرة في عالم الفلسفة، إذ ظل تأثيرها قائماً طيلة القرن التاسع عشر، وحت القرن العشرين، ويظهر ذلك في الوضعية والكانطية الجديدة.

ثالثاً: النزعة الرومانسية باعتبارها ردة فعل عن النزعة العقلية: جاءت هذه النزعة كردة فعل ضد النزعة العلمية التي سادت من القرن السادس عشر إلى غاية بدايات القرن الثامن عشر، حيث تأثر بها الجميع سواء من ساندتها أو وقف ضدها، وتبدو قيمتها في تأثيراتها على الفلسفة المعاصرة.

تنطلق النزعة الرومانسية من منطلق أن الإنسان لا يعيش بالحقيقة وحدها، كون حقيقته كإنسان أو حيوان تتجاوز كونه عاقل، وبالتالي فهي ضد التأويل العقلي للخبرة البشرية، فالحياة أوسع من الذكاء، والعالم أوسع من كونه نظاماً آلياً.

وكان روسوا هو رائد هذه الحركة، حيث خالف نيوتن في نظريته للطبيعة البشرية "فالإنسان عنده ليس هو ذلك المخلوق الذي يفكر تفكيراً عقلياً منطقياً ليحكم على الأشياء من زاوية منفعتها له أو لأصحابه، بل هو ذلك المخلوق الذي يشعر ويتأثر"². وهو يرى أن مهمة التربية المحافظة على ما هو طبيعي فينا، باعتبار كل المكتسبات الاجتماعية من حكمة وأخلاق وعادات هي إفساد لهذه الطبيعة، وبالتالي تكون مهمة التربية وفقه هي تجنب الرذائل والجهل، بدل اكتساب الخير والحكمة، وعليه تكون الغرائز وكل ما هو أولي في طبيعتنا الأجدر بالتنبؤ والمراعاة، لا ما يكون مصدر خبراتنا الاجتماعية، فالإنسان الكامل هو ما تكتمل فيه الشعور والعاطفة لا العقل والحكمة.

في التاريخ الأوروبي كانت العقلانية عند هذا المجتمع هي السلم والاستقرار في مقابل الفوضى التي كانت تهدد هذه المجتمعات، لذلك جرى العمل وفقها، لكن منذ الثورة الفرنسية ساد نوع جديد من الحراك تمثل في روح المخاطرة شكلها

¹ إم بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوروبا، تر: عزت قرني، عالم المعرفة، الكويت، بد تاريخ، ص27.

² محمد مهران، محمد مدين، ص27.

في البداية نابليون والثورة الفرنسية، ولقد كان لهذا الأمر مظاهر منها الثورة على الأنظمة الأرستقراطية من طرف الفلاسفة الراديكاليين، و حركة التجارة الحرة، والاشتراكية الماركسية، وظهر التيارات الرومانسية التي كانت في تناقض مع الإتجاه الصناعي.

ويعتبر أهم إنجاز لهذه النزعة الحركة الفردية، إذ كان شعارهم دائما (كن ذاتك ونمي شخصيتك)، وهو ما كان مبدء أساسيا للحركة الرأسمالية، كم يمكن التأكيد على العنصر الجمالي الذي أضافته إلى الحياة العملية.

إذا يعتبر الإتجاهان الغالبان في تشكيل الفلسفة الحديثة هما هذان: الإتجاه العلمي، والإتجاه الرومانسي، حيث كان لهما التأثير الأبرز على الفلسفة المعاصرة في ما بعد.

رابعاً: التيارات الفلسفية في القرن التاسع عشر: الأسلوب الذي سيطر في هذا العصر على تناول القضايا كان المنهج التركيبي الذي تفوق على التحليل، والذي أستعمل خصوصا في الفلسفة المثالية الألمانية، باعتبار الفكر في صيرورة دائمة، ومثل هذا الإتجاه بالخصوص كل من فشتنه وشلنج وبالخصوص هيفل.

وانطلق هيفل من رؤية تعتمد على سيرورة جدلية تعتمد على القضية ونقيضها والتركيب بينهما في سبيل تحقيق الحقيقة المطلقة، هذه الفلسفة ذات الإتجاه العقلي الشامل يظهر فيها الطابع الرومانتيكي وذلك بسبب طابعها الديناميكي التطوري¹.

وبعد هيفل ظهرت جملة من الفلسفات المادية متأثرة بالعلم، نفت أي دور للعقل — بل العقل ذاته عبارة عن مادة — ودافعت عن الحتمية الشاملة (الميكانيكية)، مثلها خصوصا فيورباخ، وموليشط، وبوخنر وكارل فوجت.

ثم ظهرت الوضعية وعلى رأسها أوجست كونت في فرنسا، حيث رأت أن دور الفلسفة هو تجميع لنتائج العلم (بالمعنى الميكانيكي).

هذه المذاهب المادية تعززت أيضا بنظرية أصل الأنواع لتشارلز دارون "الذي فسر تطور أنواع الكائنات الحية تفسيراً ميكانيكياً بحثاً في كتابه أصل الأنواع"².

ورغم الهالة والسطوة الكبرى التي أصبحت عليها المذاهب المادية والتطورية إلا أن المثالية عادت لتجد لنفسها موطناً قدم في إنجلترا مع توماس هيل، وفي ألمانيا مع الكانتية الجديدة...دون أن يعني هذا سيطرة المثالية، إذ ظل المذهبين يسيران معاً، وإن إتفقا في ثلاث نقاط هي: بناء النظم الفلسفية، إتجاه عقلي إزاء العالم التجريبي، إستحالة تجاوز الظواهر.

خامساً: بزوغ الفلسفة المعاصرة: (أزمة العلم) إن الانتقال من الفلسفة الحديثة إلى الفلسفة المعاصرة لن يكون حدثاً سهلاً، بل هو يعني تغيراً جذرياً لأسس ومعالَم الفلسفة، وفوق ذلك هو تغير للمحيط والقيم والمبادئ الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وهو ما يعني حدوث أزمة ما أدى إلى هذا التغير، ليس في الحياة العقلية والروحية فحسب، بل وما يقابله في المستوى الاجتماعي. وكنتيجة عامة ليس في الإتجاهات الفلسفية فحسب، بل في طبيعة هذه الفلسفة (أو الفلسفات) على وجه التحديد.

ويمكن رد الأزمة إلى ثلاث عوامل أساسية: يتمثل العامل الأول في أزمة علم الطبيعة و أزمة علم الرياضيات، والذي ترك تطورا في الفكر التحليلي، وهدم بعض المواقف العقلية. والعامل الثاني يتمثل في ظهور منهجين جديدين في المعرفة هما: المنهج الرياضي المنطقي والمنهج الفينومينولوجي. والعامل الثالث يتمثل في ظهور تصورات جديدة تمثلت خصوصا في: التصور اللاعقلي، والاتجاه الميتافيزيقي الجديد، كما أن هذه العوامل والنتائج تتبادل التأثير بينها³. ويمكن الحديث عن هذه العوامل باختصار:

العامل الأول: أ- أزمة الفيزياء والرياضيات:

1: الأزمة في علوم الطبيعة: (الفيزياء) سيطر الإتجاه الميكانيكي منذ نيوتن، حيث ظل الاقتناع سائدا بكون العلم هو ترجمة للواقع، والسيطرة كانت لمذهب الحتمية الذي يعني أنه إنطلاقاً من الثبات والانتظام في حدوث الظواهر وفي تبادل

¹ إم بوشنسكي، ص29.

² المرجع نفسه، ص29.

³ المرجع نفسه، ص34.

التأثير بينها فيمكن التنبؤ بأي ظاهرة كانت، بولسطة الحساب العلمي، ومنه يمكن القول بسيطرة النظام على العالم. كما يمكن تسجيل الموقف الفائل ببساطة المادة إنطلاقاً من قولهم بكون الذرة هي أبسط مكون لها.

2: لكن فجأة تم التشكيك في كل هذا، ولقد إتبع التشكيك مسارا تصاعديا بدأ مع فلاسفة العلم عندما صوبوا نقدهم إلى أسس النظرية النيوتنية والتمثل في مبدأ الحتمية، وفي القول ببساطة المادة، وعموما ذهبوا إلى القول بأن تفسيرات العلم ذاتية تتجه إلى موقف العالم أو تصورهِ، كما وصلوا إلى نتيجة مفادها أن العلم نفعي بالدرجة الأولى فهو لا يعطينا الحقيقة، وذلك لكونه نسبي، وبعيد كل البعد عن أي إطلاقية

لكن الأثر الأبرز كان لنظريتي النسبية والكوانت التي هدمتا كثير من الأفكار العلمية التي أشاعتها فيزياء نيوتن. فبالنسبة لنظرية النسبية فهي ترى أن "المكان والزمان والكتلة والطاقة حيث احدثت نقلة نوعية في الفيزياء النظرية والفلك في القرن العشرين عند نشرها لأول مرة، عدلت الأسس النظرية لميكانيكا نيوتن التي كانت قائمة منذ 200 عام. لقد قامت نظرية النسبية بتحويل مفهوم الحركة لنيوتن، حيث نصت أن كل الحركة نسبية. ومفهوم الزمن تغير من كونه مطلق ويسير إلى الأمام دائماً، إلى كونه نسبي وجعله بُعداً رابع يدمج مع الأبعاد الثلاثة المكانية. وجعلت الزمان والمكان شيئاً موحداً بعد أن كان يتم التعامل معهما كشيئين مختلفين. وجعلت مفهوم الزمن يتوقف على سرعة الأجسام، وأصبح تقلص وتمدد الزمن مفهوماً أساسياً لفهم الكون. وبذلك تغيرت كل الفيزياء الكلاسيكية حسب مفهوم نيوتن. وأدت مفاهيم النظرية النسبية إلى ظهور علوم جديدة كلياً مثل: الفيزياء الفلكية و علم الكون. بالإضافة لإستخدامها في تطبيقات حياتية كنظام الملاحة العالمي GPS¹"

وأما بالنسبة لنظرية الكوانتم، أو الكم فيمكن تعريفها بقولنا أن " الكم هي مجموعة من النظريات الفيزيائية التي ظهرت في القرن العشرين، وذلك لتفسير الظواهر على مستوى الذرة والجسيمات دون الذرية وقد دمجت بين الخاصية الجسيمية والخاصية الموجية ليظهر مصطلح ازدواجية الموجة -الجسيم، وبهذا أصبح ميكانيكا الكم مسؤولة عن التفسير الفيزيائي على المستوى الذري كما أنها أيضاً تطبق على الميكانيكا الكلاسيكية ولكن لاتظهر تأثيرها على هذا المستوى، لذلك ميكانيكا الكم هي تعميم للفيزياء الكلاسيكية لإمكانية تطبيقها على المستويين الذري والعادي. تسميتها بميكانيكا الكم يعود إلى أهمية الكم في بنائها (وهو مصطلح فيزيائي يستخدم لوصف أصغر كمية من الطاقة يمكن تبادلها بين الجسيمات، ويستخدم للإشارة إلى كميات الطاقة المحددة التي تنبعث بشكل متقطع، وليس بشكل مستمر). كثيراً ما يستخدم مصطلحي فيزياء الكم والنظرية الكمية كمرادفات لميكانيكا الكم. وبعض الكتاب يستخدمون مصطلح ميكانيكا الكم للإشارة إلى ميكانيكا الكم غير النسبية.

2- **أزمة الرياضيات والمنطق الرياضي:** ويتعلق الأمر بأزمة الأسس التي ظهرت في الرياضيات: وذلك في مجالين، أولهما الهندسة الإقليدية، وثانيهما نظرية المجموعة. حيث كان الأمر يتعلق بمسألة الأسس، فما كان يعتبر بديهيات لا يقوم علم الرياضة إلا بها، ما هو في الواقع إلا مجرد مسلمات أو قضايا ليست يقينية على الإطلاق، وهو ما نبه إلى ضرورة التحليل الدقيق للمفاهيم التي تبدو في الظاهر بسيطة، وإلى تركيب النظم الرياضية ابتداء من المسلمات.

أما بالنسبة للمجموعات فقد اكتشف العلماء في نهاية القرن التاسع عشر ما يسمى بالمفارقات (paradoxes) وهي ما تعني استنتاجات متناقضة انطلاقاً من مسلمات بسيطة وواضحة في الظاهر، برغم صحة طريق الاستنتاج، وهو ما أفضى إلى انهيار نظام الأسس في حد ذاته في الرياضيات

أما على مستوى المنطق، وبعد الردة التي حدثت ضده منذ ديكارت والفلاسفة التجريبيين الذين استعاضوا عنه إما بالرياضيات أو الحدوس الحسية، فقد ظهر كوكبة من المناطقة المعاصرين كان على رأسهم جورج بول وليينتز ومورغان، الذين نقلوا المنطق من لغة الكيف إلى اللغة الرمزية، هذا الأسلوب الذي ما فتئ يتطور ويجد له أنصاراً جديداً، إلى غاية بدايات القرن العشرين مع هوايتهد وشرودرشر وبيانو وفريجه وبتراندراسل.

ب- **أزمة العقلانية:** بالإضافة إلى ما سبق فقد أدت هذه الاكتشافات إلى تغيير الإشكاليات الخاصة بفلسفة العلوم، حيث تم وضع مفاهيم و نظريات ومناهج العلم موضع تساؤل ومراجعة، وأصبح الشغل الشاغل للفلاسفة المعاصرين نمو المعرفة العلمية وتقديمها عبر تاريخ العلم، الذي تمتد جذوره من حضارة مصر وما بين النهرين إلى وقتنا الحالي، مما أدى إلى تصور جديد لطبيعة التقدم في العلم "فالمعرفة العلمية لم تعد سكونية ثابتة وتتطابق مع الخبرة الحسية ويمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، بل أصبحت ديناميكية وكونت علاقات مع المعارف الأخرى، وهذا ما أدى إلى التنظير لمعرفة

¹ ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

علمية جديدة تطرح إشكاليات معرفية مغايرة للسابقة"، مما أدى إلى ظهور أزمة العقلانية، حيث العقل ذاته أعلن ثورة على المبادئ والمعارف التي أنشأها وشكك في صلاحيتها، وأصبح بذلك ظاهرة كبقية الظواهر الأخرى يتغير و يتحول، فتأسست العقلانية العلمية المعاصرة، مغايرة للعقلانية الكلاسيكية التي كانت سائدة منذ القدم و ازدهرت مع ديكارت وسبينوزا وليبنز وكانط. فالعقلانية و فلسفة المعرفة تمثل أحد قسمني الفلسفة الفرنسية، ويمثل هذا التيار كفاييس، باشلار، كانغيلم و كويري، بينما القسم الأول يتمثل في فلسفة التجربة، المعنى و الذاتية من ميرلوبونتي الى سارتر.

فبداية التحول كان بالاكشافات العلمية وبظهور الهندسات اللاإقليدية، فالعقل لم يتجدد فحسب بل اقتنع بإمكانية تجده اللامحدود، ولهذا استعاض الفلاسفة والرياضيون عن العقلية الديكارتية بعقلية معاصرة، واندلعت معركة كبرى بين العقل المدرسي والعقل الحديث فبعد أن كانت السيادة في الفيزياء النيوتينية لمكان مطلق، طول مطلق، زمان مطلق، أصبحت السيادة في الفيزياء الاينشتينية للمكان و الزمان النسبيين، وهذا ما أكده باشلار¹.

محاضرة نتشه: (المحاضرة الثانية)

تمهيد: يمكن ابتداء طرح جملة من الأسئلة، من هو نيتشه؟ وما هي إسهاماته الثقافية عامة والفلسفية خاصة والتي جذبت الاهتمام إليه؟ حقيقة إن نيتشه هو فيلسوف ألماني مشكل في تاريخ الثقافة الأوروبية. وهو والفيلسوف سورين كيركيغورد يعدان المنبعين الروحانيين للفلسفة الوجودية. بدأ نيتشه نشاطه العلمي والأكاديمي باحثاً في علم فقه اللغة الكلاسيكي. وكتب العديد من النصوص النقدية في الدين، والأخلاق، والحضارة المعاصرة، والفلسفة والعلم. وقد تميز بخطابه المتفرد، وكان مغرماً باستخدام المجاز، والأسلوب الساخر والحكم المختصرة.

حياته: فريدريش قلهم نيتشه فيلسوف وعالم لغويات ألماني. ولد في روكن Rocken قرب مدينة لايبزيغ بروسيا يوم عيد الملك فريدريش قلهم الرابع، فسمي باسمه ومات في قايمار. وهو من أسرة من القساوسة، لكنه كان شديد الإحاد فجعله محور كتاباته، نتم باكراً من والده، فتولت تربيته نسوة العائلة اللاتي أسرفن في تدليله وملاطفته، فقد قضى طفولة سعيدة، وكان تلميذاً مهذباً صادقاً مطواعاً حتى أطلق عليه اسم القسيس الصغير، أرادته أمه قسماً كأبيه فالتحق وهو في الثانية عشرة من عمره بمدرسة بفورتا Schulpforta، لكنه عدل عن ذلك بعد أن فقد إيمانه في الثامنة عشرة من عمره، فمر مرحلة من الشك والتشتت، خرج منها بالتحاقه بجامعة بون ثم بجامعة لايبزيغ (1864-1869).

سُمي نيتشه سنة 1868 أستاذ فقه اللغة اليونانية (الفيلولوجيا) في جامعة بازل بسويسرا بعد أن مُنح درجة الدكتوراه ليتم التعيين طبقاً للوائح، ولفت الأنظار إليه نشره عدة مقالات في مجلة ريتشل Ritschl.

ولما نشبت الحرب بين ألمانيا وفرنسا (1870) تطوع في الجيش، ولأنه أصبح مواطناً سويسرياً كان عليه أن يكتفي بالعمل ممرضاً في الخدمة العسكرية.

وبعد أن تدهورت صحته أعفي من الخدمة وأعيد إلى بازل. ولم يشف أبداً من الأمراض التي أصابته في أثناء تجنيده، فاضطر إلى الاستقالة من الجامعة والتدريس سنة 1879، وقد رصدت له الجامعة راتباً جيداً يحيا منه. وقد قضى الأعوام العشرة التالية متنقلاً بين سويسرا وإيطاليا، مواصلاً عمله التأليفي، وكان في معظم الأحيان منعزلاً لا يعترف به أحد. وانتهى به المرض سنة 1889 إلى الشلل الكلي والجنون، فأرسل إلى المشفى العقلي في بازل وينا Jena ثم أعيد إلى أمه في ناومبرگ سنة 1890، ولما ماتت تعهدته أخته في قايمار سنة 1897، وباشرت نشر كتبه وظلت ترعاه إلى حين وفاته.

قلنا إن بداية نيتشه كانت مع فقه اللغة الكلاسيكي (الفيلولوجي). إلا إنه تحول بعد ذلك إلى مضمار الفلسفة. ففي سن الرابعة والعشرين أصبح رئيساً لقسم علم فقه اللغة الكلاسيكي في جامعة باسال (وهو أصغر أستاذ أحتل هذا الموقع). ولكنه إستقال عن رئاسة القسم لأسباب صحية، والتي تحكمت بمصيره لفترة طويلة. وفي العام 1889 تعرض إلى إنهيار عصبي، تركه في حالة إختلال عقلي شديد، لازمه حتى وفاته في العام 1900.

أهم المؤثرات على فلسفته: ومن الكتابات المؤثرة في تفكير نيتشه حياة السيد المسيح. فقد درسها من خلال كتابات ديفيد سترأوس (1874 – 1808) المعنونة " حياة السيد المسيح " والتي تركت أثراً عميقة على شخصية وتفكير الشاب نيتشه، والتي سنتطور لاحقاً في مشروعه المثير للجدل " المسيح الدجال ". ولكن في الحقيقة هناك عمل مهم جداً سبق

¹ زبيدة مونية بن ميسي، فلسفة الرياضة عند جان كفاييس، رسالة دكتوراه، جامعة منتوري بقسنطينة، 2008، ص32.

هذا المشروع ، وهو مقاله المعنون : القدر والتاريخ ، والذي نشر في العام 1862 . وهنا كانت البداية النقدية النييتشوية للتعالم المسيحية ، خصوصاً في بعدها التاريخي ، ومن ثم تتوجت في المشروع الهدمي " المسيح الدجال " .

تابع نييتشه في هذه الفترة دراساته في علم فقه اللغة ، وكان يجري هذه الدراسات تحت إشراف البرفسور ويلهلم رينتل (1876 – 1806) ، الذي لعب دوراً مؤثراً في مستقبل نييتشه الأكاديمي ، خصوصاً بعد إن نشر نييتشه أول مطبوع له في علم فقه اللغة . فقد رشح رينتل نييتشه لأن يكون رئيساً لقسم فقه اللغة الكلاسيكي في جامعة باسال .

وفي العام 1865 أكتشف نييتشه الفيلسوف شوبنهاور ، ومن ثم ركز على دراسة أعماله الفلسفية . ويقول نييتشه معلقاً على إكتشافه : " لقد أيقض شوبنهاور في نفسي نوازع الاهتمام بالفلسفة " . وكان للإحترام الكبير الذي يكنه نييتشه لشخصية شوبنهاور ، هو الذي حمله على كتابة مقاله المعنون : المربي شوبنهاور .

ونرى بالإضافة إلى شوبنهاور ، فقد تأثر بالفيلسوف اليوناني هرقليطس (قبل الميلاد 475 – 535) ، وكان عارفاً بتفاصيل الفلسفة اليونانية . كما إنه قرأ كانط ، وجون ستيوارت ميل ، ودرس في وقت مبكر الدارونية التي ظهرت آثارها في فكرة العلو والسوبرمان . وأطلع على فكر تولستوي (1910 – 1828) الديني ، وقرأ بودلير (1868 – 1821) ، ومن ثم ديستوفسكي (1881 – 1821) والذي يقول نييتشه عنه : " إنه السيكلوجي الوحيد الذي تعلمت منه كل شيء " (أنظر : محمد جلوب الفرخان ؛ نييتشه وهكذا تكلم زرادشت : بين الأصل والتوظيف الفلسفي ، ص 5 – 6) .

مؤلفاته: من أهم مؤلفات نييتشه : ولادة التراجيديا (نشرت عام 1872) ، التأملات السرمدية (نشر عام 1876) ، علم المرح (1882) ، هكذا تكلم زرادشت (1885 – 1883) ، فيما وراء الخير والشر (1886) ، جينولوجيا الأخلاق (1887) ، حالة فاكندر (1888) ، إرادة القوة (نشرت أخته بعد وفاته) ، والفلسفة في عصر الإغريق التراجيدي (طبع بعد وفاته). لقد سببت كتابات نييتشه ، خصوصاً المسيح الدجال ، وهكذا تكلم زرادشت، الكثير من المصاعب الأكاديمية له . فمثلاً سدت بعض الجامعات الألمانية الطريق أمامه ليحاضر ويعلم فيها . فكانت محنة مضافة إلى قائمة المحن التي واجهها هذا الفيلسوف المتفرد .

فلسفته: يمكن التعرض لفلسفته من خلال جملة من النقاط

العقل: يعتقد نييتشه أنه لا يوجد عقل إنساني واحد متكامل وشامل يمكنه الحكم الكلي على الكون وعقلنة أحداثه وظواهره، في ظل هذه الصيرورة الكاملة، فالعقل ليس مستقلاً عن العناصر المحيطة به في الواقع، وحتى المنطق والأفكار الثابتة والعقائد لم تكن ثمرة رغبة في معرفة الحقيقة، وإنما الدافعية من خلق الثابت ومنطقتها هي السيطرة والامتلاك، بعبارة أن المحرك هو الإرادة ولا شيء سواها. فالغرائز والنزعات نحو البقاء والقوة لها وجود أصلي حقيقي (بناء مادي تحتي) أما الفكر الذي يأتي لاحقاً (بناء فكري فوقي) يتخذ أشكالاً تبريرية للسلوكيات المادية الغريزية. فالأصل هو الفعل، والأخلاق ما هي إلا التبرير للأفعال إذ أن الدافعية برجماتية محضة. إذن، العقول تتمايز بتمايز الظروف والإرادات، ولذا قد تختلف الآراء إزاء أمر واحد.

وعندما أذعن لفكر الآخرين، ليس هذا الإذعان فعلاً عقلياً، إنما هو مجرد إذعان لإرادة القوة المنتصرة. فنجاح أية فكرة إنما يعبر عن مدى نجاح إرادة القوة في فرضها، فحقيقة نجاحك تكسب من خلال الفرض والفضل عكس ذلك. ومنطق هذا الفكر هو منطق القوة وكما يسميه نييتشه الحقيقة الديونيزية "الحقيقة التي يؤمن بها الإنسان الأعلى".

الأخلاق: تساءل نييتشه كيف يمكن أن ننظر إلى شخص يكون فاضلاً؟ فالشخص الفاضل الذي يثني عليه الآخرون لما قدم لهم من خيرات وفضائل (الطاعة، العفة، العدالة، المثابرة.. إلخ) سوف تضر بالفعل الشخصي الحائز عليها! وكما يقول "لو كنت حائزاً على فضيلة .. فأنت ضحية لها"، وهكذا ننثني على الفضيلة عند الآخرين لأننا نحصل منها على منافع ومميزات. فالمعتقدات الأخلاقية هي معتقدات الجموع، والجموع أكبر من الفرد "مع الأخلاق يمكن للفرد فحسب أن ينسب لنفسه قيمة بوصفه دالاً على القطيع"، فالأخلاق تمثل أولئك الذين يكونون ضعافاً من الناحية الفردية (وهم أفراد). لكنهم أقوى من الناحية الجمعية (وهم مجتمعون) وهم يأملون أن تحميهم قوانين الأخلاق بقدر ما تبرر وجودهم وأسلوب معيشتهم. فالأخلاق هي النتيجة الحتمية للمصلحة الذاتية الإنسانية والدافع التطوري للبقاء. فالدافعية للأخلاق دافعية برجماتية محضة كما أسلفنا، فلا وجود للخيار الحر ولا وجود للتثاينات المتجاوزة.

الإنسان الأعلى: إن الأستقراطيين الممتازين هم أساس وأصل الحضارات الكبرى، فالحيوانات المفترسة الشقراء كانت تجوب الأرض وتخضع الشعوب لسطوتها وتقرض عليها إرادتها وسلطانها، ومن ثم تختلق شرعة قيمية وأخلاقية

تؤكد بها شرعيتها وسلطانها واستمرار سيادتها وسوطتها. وتعمل هذه الأقلية المسيطرة على الحفاظ على قوتها الجسمانية، وتحافظ على نقاء نسلها من الاتصال بأعراق الطبقات الدنيا. وهؤلاء الممتازون يقدسون الأجداد وصفاتهم النبيلة، وتحول هذه القداسة إلى طقوس عبادية تؤله فيها ذكرى الأجداد الذين أصبحوا آلهة - فيما بعد - تقدم القرابين لأرواحهم، أي أن العبد والمعبود هو الذات المؤلهة.

وبهذا المفهوم النيتشوي ينقسم البشر إلى أقياء وضعفاء، فالأقياء هم السادة الذين يبتكرون القيم الأخلاقية لتبرير أفعالهم المباشرة، فهم يتسمون بغريزة السيطرة وحب الغزو والمخاطرة ونعيمهم هو الانتصار والسيادة، أما الضعفاء فقيمهم وسيلة لتغطية عجزهم ونكوصهم عن فرض إرادتهم.

إن الإله الحي المتجسد على الأرض الذي بشر به نيتشه هو الإنسان الأعلى "لا يمكن أن يكمن هدف الإنسانية في نهاية الزمان، بل فقط في أعلى نموذج لها" بالرغم أن هذه ليست حتمية إلا أن على البشرية أن تطمح لها كتحد للروح البشرية. ومن الأفراد التاريخيين الذين اقتربوا من هذا المثل الأعلى كما يصوره نيتشه أمثال: يوليوس قيصر، ونابليون. وقد هاجم كثير من النقاد صورة الفرد الذاتي الأناني الذي يمجذ ذاته فحسب، إلا أن نيتشه وجد أن الأنانية "الغرورية" تنتمي إلى ماهية الروح النبيلة!

وهذا الإنسان الأعلى سيولد من طبقة السادة الممتازين الذين نبذوا الأديان التي تنفر من الحياة الأرضية، والتي ساهمت في امتصاص عناصر القوة وأبقت البشرية في حالة ضعف وهن. إذن الإنسان الأعلى هو عودة للطبيعة المادية الأصلية التي تجسدت فيها إرادة القوة وسوف تتجسد من خلاله تجسدا تاما (نقيض فلسفة شبنهور أستاذه في بداياته). ولا يسعنا إلا أن نتخيل هذا "الإنسان الأعلى" بجيوش همجية يكتسح ما سواه!

وكما يقول نيتشه بصلافته النزقة وعجرفته المعهودة على لسان زرادشت: "على أهل السيادة في الإنسانية المتفوقة أن يمهّدوا سبيل السعادة لمن هم دونهم بتضحية ملذاتهم وراحتهم وعليهم أيضا أن ينفذوا مَنْ لا يصلحون للحياة بالقضاء عليهم دون إمهال".

يرى تشارلز دارون في كتابه "سلالة الإنسان"، "أن القبيلة المؤلفة من كثرة الأعضاء الذين هم على استعداد دائما لمساعدة بعضهم البعض، والتضحية بأنفسهم من أجل الصالح العام، سوف تنتصر على معظم القبائل الأخرى، وسوف يكون انتخابا طبيعيا."

ونيتشه عكس السيناريو تماما "فلندع القبيلة تضحي بنفسها لو أن ذلك ضروريا للمحافظة على فرد واحد عظيم. إن ما ينبغي علينا أن نسعى لزيادته هو كيف البشرية لا كمها. إن الأمة طريق ملتف للطبيعة للوصول إلى ستة أو سبعة من الرجال العظماء. نعم وعندئذ تدور حولهم". فالصراع هنا ليس صراعا من أجل الوجود كما هو عند دارون، بل هو صراع من أجل العظمة والقوة. كما نلاحظ أن هذه النظرة غير السوية للبشرية لن تخلق لنا سوى مسوخا بشرية تؤله الذات على حطام الشعوب! ولا شك أنها صورة قميئة من صور الاستبداد، ولا يمكن أن تكون إلا نتيجة حتمية لولادة نظام وحشي شمولي يعلي من قيمة الفرد الحاكم "ظل الإله في الأرض".

العود الأبدي: وهي فكرة محورية في فلسفة نيتشه "العود الأبدي" والتي تبدو بديلا لفكرة الأبدية في الأديان السماوية، وهي أيضا قريبة الشبه من فكرة عقوبة سيزيف في الأسطورة اليونانية، الذي عاقبه كبير الآلهة بعمل متكرر ورتيب، وليست بعيدة أيضا عن فكرة الكارما البوذية، إلا أن نيتشه يرى أنها عود أبدي مادي رتيب "كالساعة الرملية" سيعود من جديد ويذهب من جديد دائما وأبدا، فكل شيء سيعود بنفس التسلسل وبنفس النتائج. ويعترف نيتشه بأنها فكرة محبطة جدا وليست أكثر إغراء من فكرة الجنة والخلود في الأديان السماوية، إلا أنها محرض لكي نكافح لنكون أعظم مما نحن عليه، ومادامت اللحظة الراهنة هي كل شيء، فلنستغلها أفضل استغلال محققين أفضل ما في أنفسنا.

فالزمان عندما تنتهي دورته الحالية لن يتوقف، إذ أنه سيبدأ من جديد دورة أخرى لا تختلف عن سابقتها، والعود الأبدي "يعني تكرار اللحظة بكل ثباتها وصيرورتها، ولكنه ليس تقبلا لمضمون اللحظة الثابتة، وإنما هو تأكيد لصيرورتها"، وكما يقول نيتشه مخاطبا اللحظة: "فلتكرري نفسك إلى الأبد" أي إذعان كامل للصيرورة.

عبي التاريخ: التاريخ بالنسبة لنييتشه يمكن أن يهدد الحاضر، وذلك بجعل أمم الماضي العظيمة مثالية، ويحثنا على منافسة هذه الثقافات الميتة ولذا قال: "ليس لدينا نحن المحدثين ثقافة نقول عنها أنها ثقافتنا، فنحن نملاً أنفسنا بعبادات وفلسفات أجنبية، وكذلك بديانات وعلوم بحيث نصبح موسوعات جواله" (استخدام التاريخ وإساءة استخدامه) فتمثل

الماضي واستخدامه في صنع حياتنا وثقافتنا هو مسخ لإرادتنا، فالتاريخ ما هو إلا عبء ميت ثقيل على الحاضر. فما قيمة أن تمتلك قدرا وفيرا من التاريخ، لكنك لا تستطيع أن تعيش حياة أصيلة من صنعك؟! إذن، إن اسقاط التاريخ على الحاضر هو إعدام للمشروع الفردي للتحقق الذاتي والفعل في العالم. وكلما قلّ اكرائنا بالتاريخ، كلما كنا أقرب لإنتاج ثقافة حياة "حرية الروح"، وإلا سنظل "مجرد ضلال للإنسانية".

أهم تأثيراته في الفلسفة والفلاسفة: ترك نيتشه أثراً جوهرياً على مسارات الفلسفة والثقافة الأوربيين على حد سواء. فقد ظهر حضوره المتميز في تطور الفلسفة الوجودية ، وفي تفكير اتجاهات ما بعد الحداثة . ولعل أسلوبه المتفرد وسؤاله الراديكالي عن قيمة وموضوعية الحقيقة ، ولد أنواعاً متنوعة من التفسيرات الباحثة في نصوصه . ومن أفكاره المثيرة للجدل الدائم ومن ثم الإختلاف حولها : موت الله ، وإرادة القوة ، والسوبرمان ، والمسيح الدجال ...

محاضرة: الفلسفة الفينومينولوجية، هوسرل نموذجاً. (المحاضرة الثالثة)

تمهيد: تعتبر الفلسفة الفينومينولوجية أو الظواهرية من الفلسفات المعاصرة الأولى التي قطعت الصلة مع فلسفات القرن التاسع عشر، ويعد الفيلسوف الألماني إدموند هوسرل (1859- 1938) أول من أعطى لكلمة الفينومينولوجيا بعدها العميق لتصبح علماً كلياً مفتوحاً، وليس مذهباً جزئياً.

المفهوم: لغة: المقصود به الواقع الخارجي المؤثر على الحواس، كالظواهر الفيزيائية. والواقع النفسي المدرك بالشعور كالظواهر الانفعالية...

اصطلاحاً: ومن هذين النوعين من الظواهر يأخذ هوسرل تعريفه للفينومينولوجيا، حيث يعرفها: بأنها العلم الذي يدرس خبرة الوعي، خبرته بالأشياء، وخبرته بذاته.

الأصل: وعن أصل هذا المفهوم واستخداماته عند الفلاسفة السابقين، فنجد أن الفيلسوف لانبير أول من استخدم هذا المصطلح، ثم تبعه فلاسفة عديدون من أمثال إيمانويل كانط خاصة في كتابه (نقد العقل الخالص)، وهيغل في كتابه (فينومينولوجيا الروح)، وهارتمان في كتابه (فينومينولوجيا الضمير الأخلاقي). وفي القرن العشرين صار يطلق على اتجاه فلسفي ألماني رائده إدموند هوسرل، ناصره في منهجه جملة من الفلاسفة من أبرزهم مارتن هايدغر، وجون بول سارتر...

مصادر الفينومينولوجيا: تعتبر مزيجاً من التأثيرات الفلسفية التي تأثر بها هوسرل — باعتباره مؤسس هذه الفلسفة — ومن أهم هذه التأثيرات فكرة الماهيات الثابتة لأفلاطون، والكوجيتو لديكارت، والمونادولوجيا لليبنيتز، وأخذ من كانط تأسيس العقل على مبادئ ثابتة، ومن العلم طريقته المنهجية الوصفية، ومن الرياضيات تحليلاتها العقلية الدقيقة، ومن فرانس برنتانو فكرة القصدية، وكذا تأثيرات ألكسيس مينونغ...

التأسيس: بدأ هوسرل رياضياً حيث ألف كتاب (فلسفة علم الحساب)، ثم ظهر مؤلفه الأساسي (أبحاث منطقية) والذي ضمنه نقداً للمذهب الاسمي، الذي اعتبر أن القوانين المنطقية ما هي إلا تعميمات تجريبية واستقرائية مماثلة لقوانين الطبيعة، ويرى أصحاب هذا المذهب أن الكلي ما هو إلا تصور عام. أما هوسرل فيرهن على أن القوانين المنطقية ليست قواعد على أي نحو من الأنحاء، وعلى أن المنطق ليس علماً معيارياً، وإن كان أساساً لمذهب معياري، فالمنطق يتحدث عن الوجود. ويوضح أن الكلي ليس له علاقة بالتصور التعميمي.

كما انتقد في هذا الكتاب الاتجاه النفسي الذي يرى بأن المنطق ليس إلا فرعاً من علم النفس، إذ يرد بأن في هذا خطأ مزدوج، فلو كان الأمر كذلك لكانت القوانين المنطقية غامضة غموض القوانين السيكلوجية هذا أولاً، وثانياً لكانت القوانين المنطقية احتمالية، ليخلص في الأخير إلى أن القوانين المنطقية قوانين نموذجية وقبلية.

مبررات المنهج الفينومينولوجي: لاحظ هوسرل ابتعاد الفلسفات والعلوم في عصره عن اليقين وتناقضها في ما بينها، إذ كلها كانت تعيش أزمة حادة، ورغبة منه في التخلص من هذه التناقضات ببناء علم كلي، سعى إلى إصلاح علوم عصره، والفلسفة على وجه دقيق، بوضع علم كلي هو الفينومينولوجيا، يهدف إلى وضع مبادئ يقينية مطلقة تقوم عليها شتى العلوم والمعارف في وحدة كلية، في نفس الاتجاه الذي أخذه ديكارت في فجر الفلسفة الحديثة عندما سعى نحو الإصلاح التام للفلسفة لتصبح علماً قائماً على أسس مطلقة. وهوسرل يرى أن الفلسفة هي المنوطة بالقيام بهذه المهمة على اعتبار أن العلوم الأخرى اهتمت بما هو جزئي.

وتتجلى المعاني الكلية في ما يقف وراء ما هو واقعي وجزئي والذي اشتغلت عليه العلوم وفق منهجها التجريبي الرياضي الذي يتسم بجملة خصائص هي: الحسية، المادية، الجزئية، التغير، العرضية وهي الصفات التي ندركها بالتجربة الحسية. وذلك على نقيض المعاني الكلية التي تؤسس للعلم الكلي والتي تتسم ب: العقلية، المعنوية، الثبات، الجوهرية، وهي التي ندركها بالحدس العقلي.

فلسفته: (منهجه): تحمل الفينومينولوجيا شعاراً أساسياً مفاده "التوجه نحو الأشياء" هاته الأشياء التي لا تعطى إلا وفق منظور ذاتي للوعي البشري، هدفه الوصول إلى الماهيات. وفي سبيل هذا أسس هوسرل منهج الإيبوخيه ((*epoché*)) والذي يعني التوقف عن الحكم، وذلك بأن نضع بين أقواس العالم الطبيعي الممتد في المكان، والمنتابح في الزمان، وقد أتاح هذا لهوسرل التوقف عن الحكم والوضع بين أقواس الانتقال من الموقف الطبيعي إلى الموقف الترسندنتالي (المتعالي)، حيث ينتقل الملاحظ من مشارك ومنتهب للموضوعات إلى غير مبالي أو غير منتبه وغير مشارك، دون أن يعني ذلك نفي وجود الموضوعات — على عكس ديكارت — بل فقط التوقف عن اتخاذ أي موقف سواء أكان بالإثبات أو النفي أو موقفاً وسطاً بينهما وهذا هو ما يطلق عليه هوسرل بالإيبوخيه.

والوضع بين الأقواس يتكون من عدة عناصر هي: 1: الوضع التاريخي بين أقواس: بأن ندير ظهورنا لجميع المعتقدات والآراء والمذاهب الفلسفية وكأنها غير موجودة، فالفلسفة لديه لا تهتم بكل ذلك وإنما فقط تنحو وتتوجه نحو الأشياء.

2: الوضع الوجودي بين أقواس: ويكون بالامتناع عن كل الأحكام الوجودية بما فيها الأحكام الواضحة الجلية مثل وجود الأنا.

وفي المرحلة الثانية يأتي دور الاختزال الفينومينولوجي (Réduction phénoménologique) ويميز هوسرل بين نوعين من هذا الاختزال: 1: الاختزال الماهوي: والذي يعني رد الوقائع الجزئية إلى الماهيات العامة كرد أنواع الأحمر المتجلية في الوقائع إلى ماهية الأحمر. 2: الرد الترنسندنتالي: وهو الذي يقوم بوضع كل ما ليس له علاقة بالوعي الخالص بين أقواس، وهو ما يتيح بقاء ما هو معطى للذات فقط من الموضوع.

القصدية: (L'intentionalité) تعتبر نظرية القصدية الأساس في فلسفة هوسرل الفينومينولوجية. ويعرفها بقوله "كلمة قصدية لا تدل على شيء آخر غير هذه الخاصية الأساسية والعامة التي يختص بها الشعور، بأن يكون شعورا بشيء ما، وأن يحمل في ذاته هو بوصفه أنا أفكر موضوعه المفكر فيه" ويشرح أحدهم هذا الكلام بقوله "القصدية هي القدرة التي يمتلكها الوعي في رصد الموضوع أو بالأحرى كينونة الوعي كأنفتاح على الموضوع" فمفهوم القصدية إذاً يقوم على العلاقة بين فعل الوعي وموضوعه، فالشعور القصدية يتألف من ذوبان الذات والموضوع في بوتقة واحدة.

ويمكن الإشارة إلى أنه لا يمكن القول أن القصدية سمة تضاف للوعي يمكن أن يحملها أو لا يحملها، بل الوعي يحمل في ذاته الارتباط بالموضوع بما يقصده أو يعنيه، سواء وجد الموضوع أو لم يوجد. وبهذا يعتقد هوسرل أنه قد تجاوز مشكلة ثنائية الذات والموضوع.

محاضرة: الفلسفة الوجودية: سارتر أنموذجاً. (المحاضرة الرابعة)

مقدمة: قال ياسبرز معللاً لجوئه إلى التفكير الوجودي "في العلوم يرد الكائن بكليته إلى الموضوعي، أي إلى ما يمكن درسه من الخارج. إلا أنه وبهذه الطريقة لا يمكنني أن أفهم الكينونة التي هي أنا، إذ لا يمكنني أن أعرف نفسي إلا من الداخل عبر وعيي إمكانياتي الخاصة. إن مهمة توضيح الوجود هي بالتالي توجيه كل فرد نحو أصول وجوده بالذات التي عليه أن يعيها والتي باستطاعته وحده تحقيقها" إن هذه النوعية من التفكير التي لجأ إليها هذا الكاتب وكثير من الفلاسفة الذين أصبح يطلق عليهم الوجوديين، والتي تعتبر فريدة في تاريخ الفلسفة كانت قد أنضجتها جملة من الظروف التاريخية والاجتماعية التي استجدت على أوروبا في بدايات القرن العشرين، وبالتالي ما هي المبررات الحقيقية لهذا التوجه الجديد وما هي مصادره المباشرة من تاريخ الفلسفة، ومن هم رواده، وما هي الخصائص الجوهرية المشتركة بينهم؟

مفهوم الفلسفة الوجودية: لغة تعني مفردة الوجود حسب المعجم الفلسفي: "تحقق الشيء في الذهن أو ف الخارج، ومنه الوجود المادي، أو في التجربة، والوجود العقلي أو المنطقي" أما الوجودية فيعرفها بأنها "مذهب يقوم على إبراز الوجود وخصائصه وجعله سابقاً على الماهية، فهو ينظر إلى الإنسان على أنه وجود لا ماهية، ويؤمن بالحرية المطلقة التي تمكن الفرد من أن يمنع نفسه بنفسه ويملاً وجوده على النحو الذي يلائمه".

والمقصود بالوجود الإنساني ليس الوجود المطلق المجرد، وإنما "هو الإنسان في وجوده الحسي بمعنى الكلمة، أي في حياته اليومية وسط العالم وبين الآخرين، بكل مشروعاته وهموم المشروعات، في حياته الفكرية أيضاً، تلك الحياة التي إذا ما انتهت من تلهيه بمشاغله اليومية أحس بالقلق الشديد حيال هذا العدم الذي يساوره في كل جانب، فلا يدري لماذا وكيف خرج من العدم، كما يرى أن وجوده إنما صنع من أجل الموت الذي سيقتذف به إلى العدم مرة أخرى"

أصول الفلسفة الوجودية: يمكن رصد جملة من التأثيرات المباشرة وغير المباشرة التي يتم رد نشأة الفلسفة الوجودية إليها.

كيركغارد: يعتبر سورين كيركغارد (1813-1855) الأب الروحي للفلسفة الوجودية بفضل المقولات الأساسية لهذه الفلسفة التي يعتبر أول من تحدث بها، فهو يؤكد على أولوية الوجود على الماهية، كما يعتبره البعض أول من أعطى مصطلح الوجود معناه الوجودي. كما قدم نظرية عن القلق، ونظرية عن عزلة الإنسان في مواجهة الله...

هوسرل: يبدو تأثير هوسرل على الفكر الوجودي من خلال منهجه الفينومينولوجي، وإن كان فلاسفة هذا التيار قد اختلفوا معه في جوهر مقولاته.

برغسون: تأثرت الوجودية بفلسفة الحياة لبرغسون وخاصة في نظرية الفعل والنشاط وسعت لتطويرها، وكذا تحليلاته حول الزمان.

خصائص الفلسفة الوجودية: يمكن الجمع بين مختلف فلاسفة الوجودية في جملة من النقاط تعبر عن خصائص هذه الفلسفة.

- 1: تنبع من تجربة حياة ومعاشة: وإن كانت تختلف من فيلسوف وجودي إلى آخر، مما يجعلها تحمل طابعاً شخصياً.
- 2: الوجود: وليس المقصود به المعنى الميتافيزيقي، ولكن المقصود بها الطريقة الخاصة بالإنسان في الوجود، والمقصود بالإنسان الفرد وليس الصيغة المطلقة.

3: فاعلية الوجود: يتصور الوجوديون الوجود في حالة فاعلية ونشاط، باعتباره مشروع غير مكتمل، ويسعى بالتالي إلى الاكتمال، وفي هذا السعي تكون الفاعلية.

4: الانفتاح: فالإنسان مرتبط أوثق الارتباط بالعالم، وعلى وجه الأخص إلى البشر الآخرين.

5: لا فرق بين الذات والموضوع، ولا قيمة للمعرفة العقلية.

شخصية وجودية: تتعدد الشخصيات الوجودية وتختلف في ما بينها إلى درجة يمكن القول معها في بعض الجوانب أن الوجودية تشكل فلسفات وليس فلسفة واحدة لولا تلك السمات المشتركة بين أفراد هذه الفلسفة. ومن هنا تأتي أهمية دراسة الشخصيات لمعرفة أنماط وطرق التفكير داخل الفلسفة الوجودية. وقد يكون جون بول سارتر أفضل نموذج نقوم بتناوله، لشمولية فكره ودقة تعبيره عن هذه الفلسفة:

التعريف بالفيلسوف سارتر: ولد سارتر في باريس عام 1905م، والد سارتر كان ضابطا بالبحرية الفرنسية، وتوفي عندما كان عمر جان 15 شهرا. كما تنحدر أمه من أصول ألمانية. فترى عند جده لأمه في باريس، حيث نهل من مكتبة جده وتعلم في بيته حال الطبقة البرجوازية، قبل أن يلتحق بالمدرسة العامة، بعد تخرجه اشتغل بالتدريس، كما تعرف على الفيلسوفة سيمون دي بوفوار، سافر إلى لندن في 1936، حيث تعرف على الوجودية والظواهرية. ثم أصبح جنديا في الحرب العالمية الثانية، كما ناصر الثورة الجزائرية متمثلا أفكاره الوجودية حول الحرية والفكر الماركسي الثوري الذي كان قد تبناه. وتوفي في سنة 1980 بعد مرض عضال وترك مكتبة ثرية.

مكتبته: تمثلت أهم كتبه في: في الرواية: دروب الحرية، الغثيان. وفي المسرح: الذباب، جلسة سرية، الأيدي الفذرة...، وفي الفلسفة: الوجود والعدم، الوجودية نزعة إنسانية، ما الأدب، نقد العقل الجدلي، ماقف، بين الوجودية والماركسية.

مصادر فلسفة سارتر: إلى مَنْ مِنْ الفلاسفة القدامى، يولي سارتر وجهه، ومن منهم يبتعد عنه؟ ابتعد سارتر عن كل الفلاسفة التجريبيين، لوك وهيوم وغيرهم. لأن التجريبيين يقصرون المعرفة على الحواس. المعرفة عندهم، هي ما أراه وأسمعه وأشمه وألمسه. وإلى من يتجه سارتر الآن؟ من هم الفلاسفة الذين نهل منهم سارتر واشتق أفكاره الغنية عن الفلسفة الوجودية؟.

1: اتجه أولا إلى ديكارت أعظم الفلاسفة الفرنسيين المحدثين. تأثير ديكارت على سارتر واضح وجلي. كوجيتو ديكارت الشهير "أنا أفكر، إذن أنا موجود". الفلسفة تبدأ من التأكيد المطلق على الوعي بالنفس. أنا ككائن مفكر، موجود.

2: ثاني منهل نهل منه سارتر، هو فلسفة الفينومينولوجيا لإدمون هوسيرل ((1859-1938م) ومارتن هيدجر (1889-1976م). كلمة فينومينولوجيا، مشتقة من كلمة يونانية تعني الظواهر. أي أن هذه الفلسفة تدرس ضواهر الأشياء. لقد درس سارتر هذه الفلسفة الجديدة بتعمق عندما كان في المعهد الفرنسي ببرلين.

إدمون هوسيرل، كان مثل ديكارت، أستاذ الرياضيات والفيزياء بجامعة فريبورج بألمانيا من عام 1916م إلى عام 1929م. لقد حاول هوسيرل جعل الفلسفة شئاً مؤكداً مثل العلوم الرياضية. (برتراند رسل والفريد ويتهد فيما بعد، حاولا جعل العلوم الرياضية شئاً مؤكداً ولكنهما، بعد 20 عاما من الجهد المتواصل، فشلا فشلا ذريعا. رجاء مراجعة مقالي بعنوان علم الرياضيات ورحلة البحث عن الحقيقة. فهي قصة ممتعة.)

هوسيرل وديكارت، كلاهما بدأ من "أنا أفكر". لكنهما انفصلا بعد ذلك. ديكارت قال "إذن أنا موجود"، أما هوسيرل، فقال "إذن الوعي موجود". الوعي بالطبع بشئ ما. وكان إهتمام هوسيرل بهذا الشئ الخارجي الذي يمكن أن أعيه. ويركز على معرفتنا لهذا الشئ.

3: مارتن هيدجر، (1889-1976م) الفيلسوف الوجودي الألماني العظيم، كان تلميذا لهوسيرل ومساعد له، وخليفته في تدريس الفلسفة في جامعة فريبورج. لكنه يختلف عن هوسيرل في أن هيدجر يركز على وجود الإنسان نفسه.

4: وجد سارتر أيضا، أفكارا عديدة في فلسفة هيغل وماركس وكيركجار ونييتشة وداروين. الصراع حتى الموت، والعلاقة بين السيد والعبد، والوعي الغير سعيد، وموت الرب، والإغتراب، كلها مفاهيم غير غريبة علينا. جاءت في أعمال

هؤلاء الفلاسفة السابقين. هذه المواد الفلسفية والعلمية مع خبرته الأكاديمية، ساعدت سارتر على بناء صرح الفلسفة الوجودية الفرنسية. قام بتدعيمها بالقصص القصيرة والروايات والمسرحيات والمقالات السياسية.

فلسفته: في قصته (1938) تبرز لنا فلسفة سارتر متسلسلة على الشكل التالي:

1: منهجه الفينومينولوجي: مثله مثل هايدغر وبقية الوجوديين أخذ سارتر بالمنهج الفينومينولوجي الذي أبدعه هوسرل، لكن مع بعض التعديل، فقد تحولت عند سارتر من القصدية كما هي عند هوسرل على العالمية كما هي عند هايدغر مع إجراء بسيط، هو أنه اقتصرته عنده — في مخالفة لهيدغر — فقد اقتصرته دراسته على الوعي والموضوعات الماثلة أو الظاهرة للوعي أو الشعور ظهوراً بيناً. ونقطة الاختلاف بينه وبينهما، أنه فصل بين الوعي والأشياء، فلم يتوقف عند الوعي كما فعل هوسرل، ولم يتجاوز به إلى العالم (أي الظواهر) كما فعل هايدغر.

2: الحرية: والتي تكشف عن صميم الوجود... وتعني القدرة على الاختيار بين أن أفعل أو لا أفعل وهو ما يقودني إلى القلق.

3: القلق: هذا القلق سببه، اكتشافني أنني كنفس، غير مستقرة وغير ثابتة مع الزمن. النفس هنا شيء يجب تكوينه وترميمه من لحظة إلى أخرى، أي طول الوقت. والفلسفة الوجودية تناولت الموضوع الإنساني انطلاقاً من حضور القلق فيه.

4: الوجود: في العلاقة بين سارتر والمنهج الظاهراتي، قسم سارتر الوجود إلى الوجود بذاته ووجود غيره، واعتباره أنّ العدم جزء من الوجود بذاته، وهو لا ينبثق إلا بوجود الوجود، وهذا ما يجعل الإنسان متميزاً لأنه الوحيد الذي يستطيع أن يأتي بالعدم إلى الوجود.

والوجود عند سارتر يعني الوجود المشخص أي المتعلق بالذات كفرد، فلا يتعلق الأمر بالوجود المطلق الذي تتكلم عنه الميتافيزيقا. إنه الفعل في حد ذاته، أي الذات الموجودة، لا يقصد به الوجود بالفعل أي العيني. ولا يقصد الوجود بالقوة، أي الإمكان كما تتحدث الفلسفات الميتافيزيقية.

ويتعلق الوجود بذاته بالشعور (أي الإنسان) والوجود لذاته بالعالم (أي ما هو خارج عن الذات)

ويعرف سارتر الوجود في ذاته بقوله "الوجود في ذاته ليس أبداً ممكناً أو مستحيلاً، إنه موجود وهذا ما يعبر عنه الشعور بألفاظ تنبيهية، بقوله إنه زائد يعني أنه لا يستطيع اشتقاقه من شيء ولا من موجود آخر، ولا من ممكن، ولا من قانون ضروري، إنه الموجود في ذاته غير مخلوق، وليس له علة وجود، وليست له علاقة بوجود آخر" وذلك يعني أنه مطابق لذاته، فهو لا يوجد من أجل ذاته كالكائن الواعي، بل هو جامد ومتكامل... ومن عناصره العدم الذي هو جزء منه

بينما الوجود لذاته هو وجود بدون سبب ولا تفسير قذف به في العالم، دون أن يعلم، لكنه بالرغم من ذلك فهو مسؤول، وبالتالي فهو حر وإن لم يكن حراً على إيجاد مسؤوليته، ولا مسؤولاً في إيجادها يقول: "إن ما هو موجود من أجل ذاته ضروري من حيث أنه يؤسس نفسه، من أجل هذا فإنه الموضوع التأملّي لعيان ضروري: إنني لا أستطيع أن أشك في أنني موجود، ولكن من حيث أن هذا الذي من أجل ذاته، وبما هو يمكن ألا يكون فإن له كل إمكان الواقع."

الفلسفة التحليلية: بتراند راسل أنموذجاً (المحاضرة الخامسة)

مقدمة: حقق القرن العشرين فتوحاً علمية كبيرة على المستوى المادي، وليس أدل على ذلك من تفتيت الذرة، ورد الماديات الموجودة في العالم إلى جزئيات صغيرة، ومن ثم تحطيم هذه الجزيئات الذرية وكشف جوهرها والاستفادة منها. كل هذا أحرزه العلم بمنهجه التجريبي في ارتباطه بالرياضة ومنهجها التحليلي. لذا فقد أصبحت السمة المميزة للقرن العشرين هي أنه عصر التحليل مما حدا بالمفكرين المعاصرين إلى التحول إلى الاتجاه الواقعي غافلين الاتجاه المثالي، إذ أن الأرضية التحليلية لهذا القرن تدعو إلى أن تكون الثمار الفكرية واقعية، سواء أكانت الواقعية مادية أو تحليلية، طبيعية أو إنسانية.

وتعد الفلسفة التحليلية أبرز اتجاه فلسفي معاصر عبر عن الروح العلمية الرياضية، والذي يضم عدداً من المذاهب المتجانسة مثل الواقعية الجديدة، ومؤسسها الفيلسوف الإنجليزي جوج مور والذي سار في طريقها بعد ذلك بتراند راسل وكذلك الوضعية المنطقية التي ظهرت أولاً على يد موريس شليك وحمل لواءها بعد ذلك آير وكراناب.

تعريف الفلسفة التحليلية: أصل مصطلح التحليل في اللغة العربية حل، وحل أو حل الشيء فككه وفتحه، أي فك كل مركب إلى أجزائه، ويعني التحليل في اليونانية (analysis) ويدل على فك المركب إلى أجزائه ويقابلها التركيب الذي يعني بناء كل من أجزاء¹. وكذلك الأمر في مجال المعرفة العلمية أو الفلسفية، تعني كلمة التحليل فك أو رد الموضوع إلى عناصره الأولى.

وهكذا يمكن القول بأن الغرض من التحليل عند الفلسفة التحليلية هو: عملية يراد بها اكتشاف عناصر موضوع معين، من أجل غرض خاص، وهذا يعني أن الغرض من التحليل هو تقليل درجة الغموض في المركبات بتوجيه الانتباه إلى الأجزاء المتعددة التي تتركب منها.

والفلسفة التحليلية تقوم على تحليل المدركات والقضايا العقلية، ولذلك فهي تعادي الفلسفات المثالية والميتافيزيقية، وهو ما نجده عند الفلسفة الواقعية الجديدة بصفة عامة والتحليلية بصفة خاصة.

والفلسفة التحليلية تختلف عن العلم في أنها لا تقوم على محاولة توسيع معارفنا بالعالم الخارجي، بل على أساس توضيح ما نعرفه من قبل، وذلك بحل المشكلات التي لا تنتج عن جهلنا بالواقع نفسه بقدر ما تنتج عن الخلط العقلي وسوء الفهم².

والتحليل عند هذا التيار ينصب على اللغة بهدف توضيحها، بأن تزيل الخلط الذي ينشأ عن إساءة استخدام الإطارات التي تصاغ فيها أفكارنا (اللغة)، وبالتالي فالاهتمام ينصب على تحليل اللغة — لا من حيث هي كذلك — من حيث ما تشير إليه من أفكار³.

ولا يمكن اعتبار التحليل كمنهج انطلق منذ الفلسفة التحليلية المعاصرة، بل له تاريخ طويل حيث استعمله فلاسفة اليونان، فسقراط كان يستخدم التحليل بحثاً عن تعريفات محددة للألفاظ، وكان أفلاطون يسمي منهجه الفرضي الذي استخدمه لإقامة بعض نظرياته تحليلاً، كما استخدم أرسطو منهج التحليل ضمن ما استخدمه من مناهج، وذلك لتمييز عناصر متباينة في الشيء أو التصور المركب...، كما استخدمه ديكرت في العصور الحديثة حين كان يبحث عن المبادئ الأولى للموجودات والمعرفة والوقائع الأولى للإدراك المباشر، أما كانط فيعد أول من استخدم لفظة التحليل في التمييز بين (الحكم التحليلي)، و(الحكم التاليفي) وهو التمييز الذي تأسس عليه مبدأ التحقيق لدى الوضعية المنطقية⁴. كما خبر التحليل

1 فريدة غيو، اتجاهات وشخصيات في الفلسفة المعاصرة، ص122.

2 محمد مهران، محمد مدين، مقدمة في الفلسفة المعاصرة، دار قباء، بد ط، ص 142.

3 المرجع نفسه، ص145.

4 محمد مهران، محمد مدين، ص141.

علماء الرياضة منذ إقليدس، وكذلك الحال مع علماء الطبيعة وعلى رأسهم نيوتن في عمومية مبدأ اطراد الظواهر مثلا في صلته بعمومية القوانين ثم ارتيابه في عموميته التامة، حيث قبل في النهاية بالمبدأ رغم ريبته¹.

وينقسم التحليليون في نظرتهم إلى طبيعة اللغة موضوع التحليل إلى فريقين: فريق رأى بضرورة تأسيس أنساق لغوية اصطناعية رياضية حيث يشترط في هذه اللغة أن تكون قواعدا أكثر وضوحا واكتمالا وتحديدًا من اللغة العادية، والهدف من كل هذا النجاح في حل المشكلات الفلسفية، على غرار العلم عندما ينحت مصطلحاته الخاصة كالقوة والكتلة وغيرها، ويظهر على رأس هذا الفريق: بتراندراسل مؤسس المنطقية الذرية، وفيتغنشتين في فلسفته الأولى.

وأما الفريق الثاني فهم من يروا بالاكتماء بالتحليل الدقيق للغة الطبيعية العادية، وهي لغة الحديث والتواصل اليومي، ويمثل هذا الاتجاه، جورج مور، وفيتغنشتين الثاني².

خصائص الفلسفة التحليلية: يمكن إجمالاً الحديث على بعض الخصائص التي تجمع بين فلاسفة التحليل ومدارسها المختلفة تتمثل في ما يلي:

1— الواقعية: فعلى عكس المذاهب المثالية، فإن الواقعية الجديدة أو التحليلية تزعم قدرة الإنسان على معرفة الواقع الموضوعي المنفصل عن الذات إدراكا مباشرا، وليس فقط الأحوال النفسية³.

2— مبدأ التحقق: فالفلسفة التحليلية تجريبية، فجميع معارفنا تأتي من التجربة، ويرى معظمهم أن التجربة حسية لا غير⁴.

3— التحليل: فقد مال كل التحليليون إلى تحليل وتفكيك كل المشكلات إلى أجزائها⁵، ويكون ذلك بتفتيتها وإعادتها إلى عناصرها الأولية، إذ أن معرفة الجزئيات تقودنا إلى معرفة الكليات؛ متبعة في ذلك أسلوب العلم في معالجته لقضاياها بإرجاعها إلى الذرة أو ما تحتها بالنسبة للفيزياء، أو الخلية بالنسبة للبيولوجيا⁶.

4— رفض كل ما هو كلي في المعرفة: ويتصل الأمر برفض الانتقال مما هو كلي إلى ما هو جزئي، بالحقاق الأحكام المتعلقة بالأجزاء بالحكم الكلي على ما هو كلي.

5— رفض كل ما هو ميتافيزيقي: ويتصل الأمر بالموضوعات أو العبارات التي تشير إليها، وكنتيجة لذلك تم رفض جميع الفلسفات التي تتعامل بمثل هذه الموضوعات والمتمثلة خاصة في الفلسفات المثالية⁷.

6— توضيح قضايا العلم: الهدف من الفلسفة حسب التحليليين هو توضيح قضايا العلم، فهي قضايا صادقة بالضرورة لوضوحها الحسي والتجريبي، ولذلك يجب أن تكون العبارات الدالة عليها واضحة في حد ذاتها، ومساوية لها عبارة بواقعة كما يرى ذلك فيدغنشتين.

أهم مشكلات الفلسفة التحليلية: تعد مشكلة المعرفة أهم ما شغل فلاسفة هذه المدرسة، حيث وضعوا لها جملة من الشروط تعد بتوفرها صحيحة تتمثل في ما يلي:

1— الابتعاد عن الذاتية، 2— وأن تتعلق المعرفة بشيء يقع خارج الذات، 3— لا تأثير للمعرفة على الشيء المعروف، فهو مستقل عنها، 4— تغير المعارف يؤدي إلى تطورها، 5— كلما تطورت المعارف نفذ الإنسان أكثر إلى حقيقة الموجودات.

أهم اتجاهات الفلسفة التحليلية: رغم ما يبدو عليه الأمر من تشابه بين الفلاسفة الوضعيون في ما ذهبوا إليه من آراء ومواقف، وما يشتركون فيه من خصائص — مثلما رأينا — فإنه يمكن الحديث عن بعض الاختلافات والتي يمكن ملاحظتها عند الحديث عن تياراتها، والتي يمكن إجمالها في: الواقعية الجديدة أو الذرية المنطقية حيث يعتبر مور ورسل

1 محمود زيدان، مناهج البحث الفلسفي، ص82.

2 محمد مهران، محمد مدين، ص147.

3 إم بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوروبا، تر: عزت قرني، عالم المعرفة، بد ط، بد تاريخ، ص72.

4 المرجع نفسه، ص72.

5 المرجع نفسه، ص73.

6 فريده غيو، ص 123.

7 المرجع نفسه، ص123.

أهم ممثليها، والوضعية المنطقية مع مدرسة فيينا بزعامة شيك، كما يمكن الإشارة إلى فيدغنشتين باعتباره من أبرز الفلاسفة التحليليين والذي يمكن القول أن فلسفته مستقلة لما انطبع به مذهبه من تميز وخصوصية.

الواقعية الجديدة: (الذرية المنطقية): ظهرت بوادر الواقعية الجديدة التي كانت تمثل التيار المناقض للمثالية — مع برادلي وبوزنكيت — مع كل من آدمسون (1852 - 1902) المثالي الكانطي السابق الذي أصبح واقعي نقدي، وهكس (1862 - 1941) الذي توصل إلى موقف بين المثالية والواقعية، وتوماس كيز (1844 - 1925).

وكان جورج إدوارد مور (1873)، هو من أعلن بدايتها في مقاله (تفنيد المثالية) غير أن أهم رجالها على الإطلاق كان بتراند راسل.

حياة بتراند راسل: (1872 - 1970) ولد بإنجلترا من أسرة عريقة حيث كان جده رئيسا للحكومة، درس إقليدس فاستفاد منه في المنهج، ودرس برادلي وأعجب بفلسفته التحليلية، وأعجب بهيقل وكانط، وتحول إلى التحليلية بتأثير من مور¹.

فلسفة بتراند راسل: ويمكن تقسيم فلسفة راسل إلى قسمين مختلفين: قسم يتكون من المنطق وفلسفة الرياضيات، وقسم يتكون من باقي نظرياته. كما يمكن التمييز بين مرحلتين في حياته الفلسفية:

المرحلة الأولى: ويطلق عليها مرحلة الرياضي حيث كان أفلاطونيا بحثا، إذ رأى أنه خارج المحسوس توجد كليات ندركها مباشرة، مستقلة عن العقل والأشياء ولها وجودها في ذاتها، وأن الفلسفة استنباطية، ومستقلة إلى حد ما عن التجربة المحسوسة، وألف في هذه المرحلة كتابه (برنكيما ما تيماتيكا) بمعنى (مبادئ الرياضيات).

وأهم كشف تحقق لبتراند راسل يتعلق باكتشافه لسر اليقين في الرياضيات حيث يرده إلى "أن قضايا الرياضة إذا ما حللت، تكشف عن تحصيلات حاصل لا يبنى بشيء عن طبائع الأشياء وإذن لا ألغاز في يقين الرياضة مادامت كل معادلة رياضية ترتد إلى تشكيلة من رموز أتفق على أن يكون شطرها الأيسر هو نفسه شطرها الأيمن، كأنما يقول القائل: أن س هي س... إن يقين الرياضة لا يستلزم سوى أن يتفق الناس على أن يكون رمزا مساويا لرمز آخر"².

كما يعتبر رده الرياضيات إلى المنطق كشفا ذا أهمية كبيرة، وتتمثل تفاصيل القضية في أنه في البداية رد فروع الرياضة كلها إلى الحساب، ثم رد الحساب كله إلى الأعداد، ثم رد الأعداد إلى أصوله فإذا هي ليست من لغة الرياضيات، بل هي من لغة المنطق، "إذ العدد على ضوء تحليل راسل يمكن تحليله إلى أنه رمز دال على فئة تشمل في جوفها فئات صغيرة متشابهة، فالعدد ثلاثة رمز يسمى مجموعة الأشياء الثلاثة التي مر بعضها في خبرتنا"³

المرحلة الثانية وفي هذه المرحلة أصبح يرى أن مشكلة الكليات بدون أساس، وأن الميتافيزيقا خالية من المعنى، وأن الفلسفة تجريبية وليست استنباطية.

يرى بتراند راسل أن على الفلسفة أن تكون علمية بالأساس، تستخرج أحكامها من العلوم الطبيعية، ووظيفتها أن تفتح المجالات أمام العلم، حيث أنها تتناول القضايا التي لم يتناولها هو، ومهمتها بالأساس نقدية لنتائج العلم، وتوضيحية إذ على الفيلسوف توضيح المفاهيم والقضايا العلمية. وإذا كانت الحقيقة مصدرها العلم، والعلم لا يستطيع تجاوز درجة الاحتمال حسب راسل فقد تحول هذا الأخير إلى الإرادية المتعلقة⁴. وتدين فلسفته الذرية المنطقية لهذه المرحلة، وكان أكبر تأثير عليه فيها من مور وفغنشتاين الذي بدأ معه كأستاذ وسرعان ما تحول متأثرا بفلسفته الأولى، خصوصا في كتابه رسالة فلسفية.

وفي هذه المرحلة إتبع منطق الذرية الذي يرى أن العالم يحتوي على كثرة من الأشياء أو الذرات، وأن ما نعتقده كليا إنما ينحل إلى مجموعة من الأجزاء التي ليس لأحدها علاقة بالآخر ومعنى ذلك أن أي شيء هو في الحقيقة سلسلة من أحداث تتلازم أو تتابع "فهذا القلم... إنما هو سيال دافق من أحداث... وليس هو بالشيء المتكامل المتجسم الذي يدوم على حالة واحدة"⁵

¹ فريدة غيو، ص124

² زكي نجيب محمود، نافذة على فلسفة العصر، كتاب العربي، 1990، ص119.

³ نفس المرجع، ص120.

⁴ إم بوشنكي، ص75، 76.

⁵ زكي نجيب محمود، نفس المرجع، ص200.

أدوات التحليل: ويقصد بها القواعد والأدوات المفهومية التي استعملها راسل في منهجه التحليلي، وإن كان لم يصرح بأكثرها.

1: نصل أوكام: ويقصد به أنه "لا يجب أن نكثر من الكائنات بغير ضرورة، ويظهر استعمال راسل له في عدة مناسبات، بل يغلب على فلسفته هذا الاستعمال، إذ طالب بالاستغناء عن هذه الموضوعات في ظل وجود الفئات. فمثلاً في الرياضيات ولتقادي الاكثار من الكائنات، فقد تم الاستغناء في ظل وجود أو افتراض وجود الفئات.

2: البناء المنطقي: والمقصود به إحلال الكائنات التجريبية والت نكون على معرفة مباشرة بها، محل الكائنات الميتافيزيقية المستدل عليها. وفيه كثير من الاختصار باعتباره تجسيد لنصل أوكام. والهدف هو القضاء على ما هو موضع شك لصالح ما هو يقيني.

3: اللغة المثالية: أو اللغة المنطقية الكاملة في اصطلاح راسل وهو يستعمل هذه اللغة بغرض طبع منهجه بها، وتجاوز غموض اللغة العادية وقصورها، وما قد يؤدي على إثر ذلك من أخطاء. وباعتبار التحليل قد يصل إلى أمور دقيقة جداً فلن يكون بمقدور هذه اللغة متابعة التحليل.

المنهج عند راسل: يرى (موريس ويتز) أن راسل يتصور التحليل على أنه صورة من صور التعريف سواء كان تعريفاً شئياً غير لغوي يستهدف القيام بعملية إحصاء لخواص مركب من المركبات، أو تعريفاً سياقياً لغوياً تقوم فيه بعملية استبدال رمز برمزي غيره أو برموز أخرى فهو تعريف يتعلّق بمركبات أخرى، فإذا تم تفسيرها كمحاولة لإحصاء المكونات المتعددة للكليات الواقعية الموجودة والمستقلة عنها، فإن راسل يكون قد مارس نوعاً من التحليلات الشئئية¹

يقوم المنهج التحليلي عنده على رد المركب إلى عناصره الأولى البسيطة المعروفة لدينا، وبالتالي وجب رفض كل مركب مجهول وتصحيحه عبر إعادة صياغته باستبدال المفردات والرموز الغريبة بمفردات ورموز علمية.

وللمنهج عند راسل وجهان، أحدهما فلسفي والآخر رياضي، ونصل للأول منهما إما بتحليل التجربة والخبرة، أو بتحليل اللغة، بينما نحقق الثاني بتحليل المفاهيم والتصورات الرياضية وردها إلى مفاهيم منطقية، وهكذا فالمفاهيم التي تحصل عليها في الفلسفة والمنطق إنما تحصل عليها بتحليله لعناصر الخبرة واللغة².

ويقوم المنهج عند راسل على أساس التمييز بين ما هو شائع وما هو علمي، وعن طريق المنهج التحليلي يمكن التمييز بين المعرفة الحقة وغيرها³. فالمنهج عنده يهدف إلى توضيح العلاقة الموجودة بين عبارات اللغة والحوادث العالمية التي تشير إليها تلك القضايا والعبارات، فعند تحليل اللغة إلى وحداتها الأولية نصل إلى وحداتها التي تمثل القضية التي تشير مباشرة إلى واقعة، فقولنا "كل الصبيان هم أطفال صغار" هي قضية تحليلية تعبر مباشرة عن حادثة من حوادث العالم⁴، ويبدو راسل في هذا الجزء متأثراً بفدغينشتاين.

خطوات المنهج عهد راسل: يمكن استنتاج جملة من الخطوات من مختلف تحليلات راسل باعتبار أنه لم يتكلم عنها.

1: البدء بالمركب: لا يمكن التحليل إلا بوجود المركب، وهو ما يعني الاستغناء عن البسيط ...

2: حل المركب إلى عناصره: والمقصود بها ردها إلى الكائنات الأبسط التي يتكون منها. ولا يعني هذا أن هذا البسيط هو أبسط ما يمكن الوصول إليه، بل قد تكون بدورها قابلة للتحليل، فالبساطة هنا نسبية.

3: المطابقة بين المركب وعناصره: والمقصود بذلك إيجاد علاقة هوية بينهما، وهو ما يعني إمكان القيام بتطبيق مبدأ الاقتصاد باستخدام أحدهما مكان الآخر، وهنا يتم استعمال العناصر الذرية ما دامت هي المقصودة بالتحليل مكان المركبات.

مجالات التحليل: يمكن الحديث عن أربع مجالات للتحليل عند بتراند راسل هي:

1: تحليل الرياضة وردها إلى المنطق.

1 محمد مهران، محمد مدين، ص166.

2 المرجع نفسه، ص153.

3 فريده غيو، ص125.

4 المرجع نفسه، ص126.

2: تحليل العالم المادي.

3: تحليل الفكر والعقل.

4: تحليل اللغة والكلام.

محاضرة: محاضرة الفلسفة البراغماتية: بيرس أنموذجا. (المحاضرة السادسة)

مقدمة: عندما يتعلق الأمر بالفلسفة البراغماتية، فإننا نجد أنفسنا نتحدث عن فلسفات براغماتية، وليس فلسفة واحدة. نظرا لاختلاف الرأي بين فلاسفة هذا الاتجاه، بل واختلاف انشغالاتهم وتخصصاتهم. فبالإضافة إلى اشتغالهم الفلسفي بهذه الفلسفة تجد لهم اعتقادات فلسفية أخرى كأن يكون لهم اختصاصات معرفية أخرى ككونهم علماء نفس أو غير ذلك. بل قد نجدهم ذوي انتماءات فلسفية أخرى كالفلسفة التجريبية، أو الماركسية، أو الوضعية وغيرها من الفلسفات التي تتقاطع مع الفلسفة البراغماتية في بعض أفكارها.

مفهوم الفلسفة البراغماتية: من الناحية اللغوية نجد البراغماتية (Pragmatisme) اسم مشتق من الفعل اليوناني براغما (Pragma) ومعناه العمل.

أما من الناحية الاصطلاحية فيجب أن يتم ربط تعريف هذا المذهب بالغايات وليس المنطلقات أو المبادئ، فالأفكار الصحيحة هي الأفكار الناجحة، أي هي ما يتحقق عبر التجربة، وهو ما يعني قياس الحقيقة بالنتائج العملية. فلا يوجد في العقل من أفكار مسبقة نستنتج منها الحقائق. ونظرا لتحقيق المنافع أو ما نرجوه من الأفكار فالحقيقة تصبح بذلك نسبية، وهو ما تعكسه الحقائق العلمية، فالحقيقة العلمية متغيرة من عصر إلى آخر.

ويعرفها جون ديوي وهو أحد مؤسسي هذه الفلسفة وفلاسفتها الكبار أنها "النظرية التي ترى أن عمليات المعرفة وموادها إنما تتحدد في حدود الاعتبارات العملية أو الغرضية، فليس هناك محل للقول بأن المعرفة تتحدد في حدود الاعتبارات النظرية التأملية الدقيقة، أو الاعتبارات الفكرية المجردة"

خصائص الفلسفة البراغماتية: رغم الاختلافات بين فلاسفتها إلا أنه يمكن إيجاد جملة من النقاط المشتركة عندما يتعلق الأمر بالخصائص.

1: ترفض الفلسفة البراغماتية الأفكار المجردة من الواقع، أو المسبقة والتي ليس لها علاقة بالواقع الخارجي. فهي تعتبر ثورة على الأنساق الفلسفية العقلية والمثالية، بما تمثله من أفكار خالية من أي صلة بالواقع الخارجي.

2: تهتم بدراسة ما هو واقعي متعين (Concret) من خلال الأفعال الإنسانية فهي تهدف إلى التمييز بين نوعين من الحقيقة، ما هو واقعي متجدد وما هو نظري خاو، لذلك فما يهتمها هو طرق الوصول إلى هذا النوع من المعارف وبالتالي التمييز بينهما.

3: تتميز بحرية الفكر، فهي فلسفة مفتوحة ترفض كل ما هو مغلق ثابت من المعرفة والمعتقدات الإنسانية فهي تؤمن بالتغير والتطور والنمو.

4: ارتباط الفكرة البراغماتية بالنجاح العملي وهو ما يقصد به قدرتها على حل مختلف المشكلات العملية والواقعية والعملية خصوصا.

أصول الفلسفة البراغماتية: حاول البعض التشكيك في الأصول الفلسفية لهذه الفلسفة، راديين هذه الأصول إلى طبيعة المجتمع الأمريكي ونظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية. إلا أن بعض الباحثين الذين لم يقتنعوا بهذا الرأي اتجهوا إلى الفلسفات السابقة وإلى العلوم المختلفة ليكتشفوا فيها هذه الأصول.

أ: الأصول الفلسفية: وهنا يمتد تاريخ الفلسفة لاكتشاف هذه الأصول.

1: **السوفسطائيون:** في قولهم أن الخبرة الحسية تختلف من فرد لآخر، وبالتالي اختلاف موقف الإنسان من الحقيقة والواقع، وفي ذلك يقول بروتاغوراس "الإنسان مقياس الأشياء جميعا"، ومكن التشابه هنا هو الذاتية والنسبية.

2: **أفلاطون وأرسطو:** فعن أفلاطون أخذوا مسألة التكهن بالمستقبل كأمر مقدم في المعرفة، وعن أرسطو أخذوا جانب التجربة، والانطلاق من الجزئي المتعين باعتباره الواقع.

3: **أبيقور:** أخذهم عنه الطابع العملي للمعرفة، والاهتمام بالوسائل المؤدية للغايات، مبتعدين مثله عن كل ما هو مطلق. لذلك اعتبروا الأسلاف الحقيقيين للبراغماتية.

4: **الفلاسفة التجريبيون:** فإذا كانت الحقيقة بالنسبة للتجريبي هي ما يمكن إثباته عبر التجربة والمعابنة في الواقع، فهو عينه ما تراه هذه الفلسفة، كتأكيد بكون مثلا على مسألة الملاحظة، ورفضه لأي حقيقة مصدرها العقل المجرد.

5: **كانط:** وقد أخذوا منه عدة أفكار خصوصا في مجال العقل العملي، ففي الأخلاق مثلا إقراره بأن السلوك الأخلاقي يسلم بحرية الإرادة، حيث توسع البراغماتيون في هذا المعنى.

ب: الأصول العلمية للفلسفة البراغماتية: معلوم ذلك التطابق بين العلم والبراغماتية في بعض النقاط كالجانب العملي في كليهما، واعتمادهما على الواقع كموضوع لدراستهما، واعتماد الملاحظة الواقعية، وكذلك اتفاقهما على اعتبار أن العبرة بالنتيجة. ونقاط التشابه الكثيرة والجوهرية هذه بنهما تدل على ذلك التأثير الكبير للبراغماتية بالعلم، خصوصا إذا علمنا أن العدد الكبير من فلاسفتها كانوا علماء في مختلف شعب العلم.

شخصية براغماتية: بعد التعرض للمحة عن بعض أفكار وخصائص وأصول الفلسفة البراغماتية، كان علنا التعرّيج على أنموذج منها قصد تعميق معرفتنا بهذه الفلسفة، والتحقق بشكل أدق من هذه الخصائص والأفكار حيث وقع اختيارنا على تشارلز ساندرز بيرس أحد روادها وأعمدتها البارزين.

ولد (تشارلز ساندرز بيرس) في مدينة كيمبريدج في 1839 لأب عالم في الرياضيات (بنجامين بيرس)، درس في جامعة هارفارد الفلسفة والمنطق والرياضيات، أصدر عدة مقالات فلسفية في حياته، حيث لم ينل شهرة كبيرة، ولم يدرس إلا قليلا في الجامعات، ولم يعترف به كفيلسوف براغماتي كبير ومؤسس للبراغماتية إلا بعد وفاته سنة 1914، حيث نشرت له جامعة هارفارد في بداية الثلاثينات أعماله كاملة في ثمانية مجلدات ضخمة.

طرح بيرس أسئلة جوهرية في مقال له بعنوان: (كيف نوضح أفكارنا) حول المعرفة مفادها: متى تكون للمعرفة معنى؟، ومتى تكون العبارة صادقة؟، ومتى يجوز لنا أن نتكلم عن العبارة بوصفها معبرة عن فكرة ومتى لا يجوز؟

الفلسفة البراغماتية عند بيرس: (مفهوم الحقيقة عنده) استعمل بيرس مصطلح (براغما، pragma) الذي يدل على الفعل والعمل انطلاقاً من رؤيته لمعنى (الفكرة أنها هي ما تعمله) وللدلالة على مفهومه للمعرفة وضع "قاعده البراغماتية الشهيرة" أنظر إلى الآثار التي يمكن — تصورا — أن تكون ذات نتيجة عملية، والتي نتصور أنها آثار تترتب على الشيء الذي هو موضوع إدراكنا، فعندئذ يكون إدراكنا عن هذه الآثار هو كل إدراكنا عن الشيء". وهو يوضح قاعده بقوله: إن فكرتنا عن النبيذ لا تعني شيئاً إلا ما له آثار معينة على حواسنا مباشرة كانت أو غير مباشرة، ومجمل هذا الرأي هي أن فكرتنا عن أي شيء هي فكرتنا عن آثاره المحسوسة، حيث تكون هذه القاعدة أداة للتمييز بين المعرفة الصحيحة والمعرفة الزائفة. الفكرة الصحيحة عن موضوع ما، تمكننا من التنبؤ بما سوف يحدث عندما نقدم على التعامل مع ذلك الموضوع.¹ والتطبيقات المباشرة لهذا المبدأ هي:

1— إن الحديث عن معنى مفهوم ما هو حديث عن مجموع التوقعات العملية التي يقود إليها المفهوم.

2— إن الحديث عن التوقع العملي هو حديث عن حادثة مستقبلية، تلك التي قد تكون متحققة تجريبياً.

3— إن أية فكرة لا تكون قابلة للتحقق تجريبياً (أعني) بدون توقعات (عملية) تكون بلا معنى.

4— إننا حينما نستخدم فكرتين منفصلتين بصورة واضحة، وتكون لهما نفس التوقعات العملية فإننا نستخدم في الواقع فكرة واحدة فقط².

وما نلاحظه أن هذا المبدأ البراغماتي يبعد عن التأمل الفلسفي، فهو يحدد صدق التصور بنتائج العملية التجريبية، فالتصور العقلي ما هو إلا مجموع الاستعمالات التي نتنبأ بها ونتوقعها، فالتذكر مثلاً هو التهيؤ لإعادة تكوين الحركات التي تتلاءم والشيء المتذكر، والتخيل هو أن يسلك المرء كما لو كان الشيء ماثلاً أمامه³.

ولتصبح الفكرة ناجحة عليها أيضاً أن تكون عامة، ويكون ذلك باستخدام أداة موضوعية بالنسبة للجميع وهو يقترح لذلك المنهج العلمي الذي يجعل الصواب ما يشاهده جميع الناس، وبالتالي يصير لها معنى واحداً لدى جميع الناس، يقول بيرس: "إننا لو استطعنا أن ننشئ مجتمعاً معاملياً أي مجتمعاً يتم التفاهم فيه على النحو الذي يتم عليه بين العلماء في المعمل، لانتبهنا إلى معنى الحق من غير منازع أو خلاف"⁴.

1 فؤاد كامل، أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، دار الجيل، بيروت، ط1، 1993، ص98.

2 محمد مهران، محمد مدين، المرجع السابق، ص 60.

3 المرجع نفسه، ص 60.

4 فؤاد كامل، ص 101.